رد على رد

حول السينما السياسيّة ايضاً

نشرت مجلة الهدف في العدد ٣٣٠ ، ردا على مقال « الشكل والمضمون » الذي كان قد نشر قبل ذلك بعددين . وقد افتتح صاحب الرد مقاله بمقدمة تتضمن حكما غير صائب على ما جاء من تعريف للشكل . وحتى لا يتكرر مثل هذا الخطأ ، يسرد الرد مثالا : « واضحا » استعاره من هونود ادونديل ، حيث كان همه هو التشديد على ان الشكل « هو تراجيديا ذات خمس فصول » . ويعود الرد الى المقال ، فيكتشف ان تعريف الشكل ، ولم يحدد الشكل السينمائي ، جاء كما يلي : « هو الاسلوب السينمائي او اللغة المصورة التي يخاطب بها المخرج جمهوره ، ويكتشف القارىء فجاة فضيحة فكرية هنا» وتزداد الفضيحة اتساعا حين يزيد المقال : « وبعبارة اوضح ، يبقى الشكل السينمائي ، هو ما يحتويه الفيلم المحمض من صور تعبيرية مادية متناسقة بفعل عملية المونتاج ، والتي هي في النهاية ، صيغة اظهار شكل العمل الفني » . ويعود الرد مرة اخرى فيستعير من مارسيل مارتن ، ان الصورة هي مادة الفيلم الاساسية او انها مادة الفيلم الخامية . ومن هنا يخلص الرد الى نتيجة ، انه يستحيل علينا ان نزعم ان الصور المادية التعبيرية ، المتميزة بتراكيب عميقة لفهم الواقع هي الشكل في السينما .

اولا ، انا ما وافقنا مارتن ، على ما جاء في تعريفه ، نستطيع ان نقول ، اننا لم نعارض هذا التعريف ، ولم يقل المقال ان الصورة ، هي ليست مادة الفيلم الاساسية ، وايضا لم يشر المقال الى التركيب الكيميائي للفيلم الخام . ويظهر هنا سوء فهم صاحب الرد ، لما جاء في المقال من بحث حول الصورة التعبيرية المحمضة ، وايضا نرى جهل صاحب الرد الكامل لماهية الفيلم الخام والفيلم المحمض . فمثال مارتن يتحدث عن الفيلم الخام المادي ، اما المقال فقد تكلم عن الفيلم المحمض ، ذو الصور التعبيرية المادية ، ويبدو ايضا ان صاحب الرد قد اخذ بكلمة « مادية » فظن على الفور ان المقصود هو الفيلم الخام قبل التصوير . اود السؤال هنا : كيف يمكن ان تكون المادة الخام صورة تعبيرية ؟ وطالما ان الصورة ما تزال في مجال الخام ، هل من المعقول ان نجري لها عملية المونتاج ؟ وكيف يمكن ان يكون هناك شكل فني للعمل ، طالما ان ما نملكه من الفيلم هو مادة خامية ؟ اذن ما تكلم عنه المقال هو الصور التعبيرية للفيلم ، اي الفيلم المصور الجاهز للعرض .

وقد تعني كلمة تعبيرية هنا ، التمكن من معرفة حدود المحتوى والمضمون في هذه الصورة . والحديث عن العمل الفني المكتمل لا يتم الا بواسطة الدمج والربط بين الشكل والمحتوى وبنسب قياسية بسيطة وتنسيق دقيق ، حيث يتبلور في الذهن ، بعد ذلك ، صورة مقبولة وعلمية لعملية العطاء الفكري والفني .

لو اردنا ان ناتي بتعريف لكل من الاسلوب والشكل ، لظهر لنا ان الاسلوب ، هو اداة التعبير ، وان الشكل هو الفكرة المخلوقة والمراد التعبير عنها ، اذا فالاسلوب هو اداة التعبير عن خصوصية الشكل، وحين نقول ان الشكل في السينما هو الاسلوب السينمائي ، او اللغة المصورة ، فمعنى ذلك ما يلي:

ان اداة التعبير في السينما هي ، الكاميرا ، المخرج ، الشكل المخلوق ، المراد التعبير به عن فكرة مخلوقة ، تحمل مضمونا ذا ابعاد فكرية مرسومة بدقة ، حيث تتفاعل وتتبلور بذاتها ، من خلال موقف الفنان الفكري والسياسي ، وقدرته على تسخير القوالب المادية التي بين يديه ، والقادرة على خلق العمل دون سواها . وكثيرا ما يعجز احدنا عن رسم الشكل المادي ، الذي يريد من خلاله اظهار رسم الشكل الخيالي المكتمل في المخيلة . ولكن في السينما نستطيع ان نضع كل جوانب الشكل الخيالي بدقته ، وان نطرحها ونقدمها من خلال الاسلوب المعمول به . وقد تطرح دقة الاسلوب الى حد بعيد ، شكل التعبير . هذا ما نقدره في السينما فقط . حيث ان السينما بكل امكانياتها هي اكمل الفنون ، شكلا ومحتوى واسلوبا ، وحين تتفاعل هذه الاسس ، ياتي العمل مكتملا وذو جودة وطعم فكري . وانا لا اوافق القارىء على تحديد ادوات التعبير الادبية والفنية ، كان تكون القلم في الادب ، والكاميرا في السينما فقط . حيث هناك تفاعلات نفسية في الفنون ، واحاسيس ذاتية وخيالات متناقضة ، واكتشافات فكرية لا يقف القلم او الكاميرا عند ان يكونا فقط بداتهما ادوات التعبير . لذا فان اسلوب العمل هنا ، يكون احد اهم العوامل المشاركة في خلق هذا العمل . ولا تقل اهميته على ان يكون بذاته شكلا يقوم على اساس تبيان المحتوى المقصود منه .

يعود الرد فيظهر ان الاشكال السينمائية هي : الشكل الروائي ، الوثائقي ، التسجيلي ، التخيلي . وتندرج تحت هذه الاشكال مدارس سينمائية ، كالواقعية الجديدة الايطالية والموجة الجديدة الفرنسية وسينما الحقيقة والسينما المباشرة والكلاسيكية . ويبين القارىء ان المقال قد خلط بين المدارس والاشكال ، حين قال (المقال) : « ان للسينما في ذاتها اساليب ومدارس مختلفة ، تنقسم في عطائها الفكري ـ وهنا يفترض صاحب الرد انه كان احرى بالمقال ان يضيف : والعطاء الفني ـ الى قسمين اولهما ، السينما التجارية والسينما الملتزمة سياسيا » . ويضيف الرد ان السينما التجارية لا تصيب ايا من الاشكال المذكورة سوى سينما الاستملاك ، سينما هوليوود بالدرجة الاولى ـ لقد خرجت هوليوود بعض الافلام الجيدة في التزامها السياسي لقضايا الكادحين ، وكانت بمثابة افلام تحريضية ضد السيطرة والاستغلال ، من هذه الافلام، فيلم « ملح الارض » الذي مثله واخرجه بعض من عمال المصانع ـ ويضيف ان هناك سينما سياسية تلتزم المبدأ التجاري ، كسينما كوستا غافراس .

لقد بين المقال ان للسينما في ذاتها اساليب ومدارس ، وسرد بعض هذه الاساليب والاشكال ، مع التسمية ، وهذا قد لا يسمى خلطا ، الخلط يكون حين يقول المقال ، ان هناك اساليب تتضمن كذا ويسرد ما سرده ، وان هناك مدارس هي كذا ويسرد ما سرده ايضا . وقد اخطا الرد حين قال ايضا ان السينما التجارية ، تصيب فقط سينما النمط الاستهلاكي والتي هي شكل في حد ذاتها ، ونسي ان هناك سينما تعتمد على التجارة المادية (الامثلة كثيرة) واخرى على التجارة الفكرية الرخيصة (والامثلة هنا اكثر) ، حيث ان هناك افلاما وثائقية ومباشرة ، وتسجيلية ، يعتمد اصحابها من ورائها ، جني الارباح . فمثلا افلام الجنس المباح القصيرة ، والتي لا تعرض في صالاتنا ، والمعدة في المانيا وغيرها من دول اوروبا ، وهي ليست روائية او كذا ... بل هي في الحقيقة ، ومن الناحية العرفية للسينما ، سينما وثائقية تبين حالة حياتية معينة . اود هنا ان اسال ، ما هو الهدف من صنع هذه الافلام ، وتحت اي شكل ومدرسة تقع ؟ وايضا ، كيف يمكن ان تندرج السينما المباشرة تحت لواء الشكل الروائي او الوثائقي ؟ ولماذا ، السينما المباشرة مدرسة ، اما الوثائقية فهي شكل ؟ طالما ان صاحب الرد قد اعترض على الخلط بين الاشكال والمدارس ، والمقال حين عالج انقسام المدارس في عطائها الفكري ، فهو قاصد فقط الى معالجة العطاء الفكري ، وليس مهما ان نضيف العطاء الفني او غير الفني ، رغم ذكر ذلك وعدم غياب صورته عن جو المقال .

اما ان هناك سينما سياسية هدفها التجارة ، كسينما غافراس ، فنقول ، ان هذا صحيح ، ولكن الخطأ ان نقول ان سينما غافراس ملتزمة سياسيا وهي تشكل صورة لسينما الالتزام بالمبادىء . فهناك الكثير من الافلام السياسية والتي تعالج قضايا او موضوعات ثورية ووطنية تكون معدة على اساس استهلاكي .

ويسرد الرد عددا من الامثلة ، مستوحاة من مدارس واساليب سينمائية ، كلوزي وبيرغمان والاسلوب المسرحي الجمالي ، وبونويل صاحب الشكل الروائي والاسلوب السوريالي ، و ... الخ ... حتى يتوهم الى ان الشكل الثوري لا يتحقق الا من خلال الفيلم الوثائقي ، متناسيا ان تداخل ادوات التعبير والاشكال المراد التعبير عنها ، قد يخلق في الفنون اشكالا لها ذاتها وقيمتها ووحدة عضويتها . اما ، ان الشكل الثوري لا يتم الا من خلال الفيلم الوثائقي !! فقد يكون ذلك صحيحا الى حد بعيد ، ولكنه ليس بالمقياس النهائي او الكامل لمثل هذه النظرية ، فمعظم الشعوب لها تجاربها الذاتية والموضوعية ، وتراثها ، التي تعتمد في ابراز حقوقها في اكثر الاحيان من خلاله، ورؤيتها الى المستقبل بصورة بناء ثقافي وعلمي حكيم ، هذا قد لا يتم بواسطة الفيلم الوثائقي فقط ، بل ان السينما كاداة جماهيرية يجب بالضرورة ان تحاكي الجماهير وتعمل على تثقيفهم من خلال كل الاشكال المندرجة . ولا نقول ان السينما الثورية هي فقط الوثائقية ، بل علينا ان نعمل على استثمار واستغلال جميع الاشكال لنخلق منها اعمالا ثورية تحاكي الجماهير وتتعامل معهم ، وليس همنا فقط ان نبرز للبرجوازية حقنا او سوء تصرفنا ، بل ايضا من واجبنا تجاه جماهيرنا ان نعمل على صنع سينما جادة تحاكيهم انفسهم وتحقق لهم شيئا من رغباتهم وتطلعاتهم .

ويصل الرد ، في المقال ، الى « ان الشكل يتسرب من خلال الديكور ، المكياج ، طريقة عمل المونتاج ، وان هذا يتعارض مع التعريف السابق القائل بان الشكل هو صور مادية تعبيرية متناسقة». ويرى صاحب الرد ان هناك امرا مضحكا في هذين التعريفين ، ويقول ان الشكل لا يتاثر بالديكور انما بالتقنية .

ان للديكور وحركة الممثل وطبيعة الحدث ، تاثيرا كبيرا على قضية الشكل ، والديكور او المكياج ليس فقط ما ياتي في الافلام الروائية ، فاحيانا تعتمد سينما الوثيقة على الديكور ـ الوثيقة الطبيعية ، وان عملية المونتاج تحسم في النهاية صورة ووظيفة هذا الشكل ، والتقنية في حد ذاتها اداة توظف لخدمة تسرب الشكل وبلورته ، والكاميرا وغيرها من هذه الادوات هي اسس هذه التقنية . وحين اورد المقال ان الشكل يتسرب من خلال كذا وكذا ، فليس معنى هذا تعريف الشكل ، ليتناقض بالتالي مع التعريف المطروح مسبقا .

واخيرا يصل الرد الى القول ، ان في السينما السياسية لا تتوقف القضية على اظهار البؤس الذي تعيشه الجماهير ، بل على مدى ادانة هذا الظلم والحث على التمرد والثورة .

لو عاد القارىء الى المقال قليلا ولم يتفحصه فقط من قبيل القراءة العامة ، لوجد ان ما ذكره لا يتعارض ابدا مع ما جاء في المقال من ان هناك « بعض » النقاد يرون ان السينما السياسية هي التي تظهر البؤس والظلم فقط وان هذا شيء من الادانة ، ويقول المقال ايضا ، انه رغم اختلاف الكثيرين في تفسيرهم لمعنى السينما السياسية ظاهريا ، يبقى ان هذه السينما هي الاتجاه الفكري الذي يلتزم ايديولوجيا في التعبير عن مشاعر فئة او طبقة ، والدفاع عن مصالحها ومكتسباتها ، ويضيف المقال ـ وهنا لم يرد في المجلة ـ يعتمد الفيلم السياسي على تعميق النظرة التقدمية ، المدافعة عن الجماهير ، حيث اسس الدفاع تتكون من خلال الذات والشكل ، ثم تختلف الاشكال فيظهر التناقض متكاملا ومفهوما وملموسا ، لدى مختلف الطبقات المتصارعة ، وهذا ما يدفع بالطبقة الكادحة الى الثورة والتمرد ، وهنا نرى التمييز الطبقي للوجود الانساني ، فتظهر عملية تعميق الصراع لصالح الجماهير ، وكانها عامل طبيعي .

خالد

الطريق الى الوطن غير سالكة

عرفته طوال السنين الخمسة في الكلية من خلا لنشاطه البارز من اجل القضية الفلسطينية وفي حفلة التخرج كان لي معه هذا الحديث لمعرفة شعوره في هذه اللحظة التي ينتقل فيها الى مرحلة جديدة من حياته .

ـ كمال لا بد انك تشعر بالسرور وانت الان خريج جامعة ...

★ نعم وخاصة حينما اشعر انني سأرى امي التي لم اشاهدها منذ خمس سنوات .

« كنت اعلم ان امه ماتت في مجازر ايلول فلم ادر ماذا يقصد من ذكر امه فحاولت ان اخفف من توتره وجدية الكلام . »

ـ ولكن يا كمال اخوك مهندس بالكويت واختك تعيش في دمشق وعمك يملك بيتا في عمان فالمستقبل مفتوح امامك ولديك فرص كثيرة للاختيار .

« وحين كانت تخرج مني هذه الكلمات كنت اتصور هل استطيع فعلا ان اترك وطني واستبدله بحقائب وتذاكر سفر بين مطارات العالم ؟ وقبل ان العن هذا الاحتمال كان كمال قد خرج عن صمته وتكلم وهو لا يزال مطرقا راسه في الارض وكانه يفتش عن الكلمات بين ذرات التراب . »

★ ان هناك فرقا يا صديق بين اختيارات الانسان للعيش وبين شعوره بالانتماء الى جزء منه ، فلو كنت بدون وطن لعرفت انه المكان الذي لن ترتاح الا فيه، وانك مستعد لبيع كل حقائبك واستبدالها بتذكرة عودة للوطن .

فكما انت تنتمي الى والدك ولا تريد ان يحرمك احد منه ، فانت تنتمي لوطنك ولن تقبل ان يحرمك احد منه . الم تفكر يوما لماذا يجوع الناس ويسجنوا باوطانهم مقابل رفضهم التخلي عنها .

ان الوطن ليس خارطة .. انه الشعور بما يخصك بصورة مباشرة من شعب وتاريخ وذكريات .. انه دالية العنب التي تلتف حول بيتكم .

... وتمر الايام على اخر لقاء لي مع كمال .. وذات يوم وانا اتصفح احدى الجرائد اقرا ان السلطات الاسرائيلية تعتقل شابا عربيا يدعى كمال ... بتهمة اقامته اللامشروعة في الارض التي احبها ...

... ويمضي كمال ويبقى الوطن ... ليعود اليه باقي الرفاق .

عماد احمد
الارض المحتلة